مدخل

((لا وجود لحضارة دون جماعة بشرية، والعكس صحيح))(1) . إلى هذا الحد يعتبر المفهوم (الحضارة) لصيقاً بالإنسان، بل إلى هذا الحد يعتبر وجود أحد الطرفين (الإنسان ـ الحضارة) ملازماً أو مكملاً للآخر، بل يعتبر كل من الطرفين مشروطاً بالآخر، فلا حضارة دون إنسان، ولا إنسان دون حضارة، هذا الاشتراط ينفي صفة التحضر عن المادة التي لا تخضع ليد الإنسان وعقله، وعن الإنسان الذي لا يتجاوز شرط الطبيعة، شرط الفردية.

يحيلنا الكلام السابق أيضاً، إلى مفهوم النسبية في الحضارة، كما يحيلنا إلى تاريخيتها.

إنها مستوى معين من تطور أساليب العيش مرهون بالمراحل التاريخية ومستوى التطور فيها، فالعصا التي استعان بها الإنسان البدائي ليصل إلى الثمرة، هي منتج حضاري (ثقافي)، كما أن المدية الصوانية التي استخدمها لتقطيع فريسته منتج حضاري، يساهمان في رسم الخط البياني لتطور الإنسان باعتباره كائناً حضارياً. وإذا كان الخط يبدأ بالعصا وحجر الصوان، فإنه ينتهي بالطائرة والصاروخ والقمر الاصطناعي والإنترنت.. إلخ. مروراً بطقوس السحر والأغاني والرقصات، وصولاً إلى الأدب الرفيع والسينما والموسيقا... إلخ.

فالحضارة إذاً، كما يراها ديز موند موريس، هي خروج من مملكة علم البيولوجيا للدخول في مملكة الثقافة (2).

إلى أي حد يجب أن يكون هذا الخروج؟ لا يهم.

إن أي خروج محسوب، يدل على تطوير خبرة متراكمة يدخل في باب الثقافة، ويصنف كمكتسب حضاري، لأنه يعمل على إزاحة عنصر من عناصر البيولوجية أو الطبيعة، ليحل محله ما ثبت أنه ناجح بالتجربة. بل ما يثبت أن عقلاً بشرياً عمل وخطط ولم تترك الأمور للطبيعة والغرائز.

وقد عملت الاثنولوجيا، أي علم دراسة الشعوب بوصفها خالقة وحاملة للحضارة(3). على تتبع ودراسة التطور الحضاري للإنسان منذ بدايات ظهوره ككائن مختلف.

والحضارة ليست قيماً ومعايير ثابتة تظهر على مسرح التاريخ دفعة واحدة، أو كائناً ينمو إلى درجة محددة لا يستطيع تجاوزها. إنها كائن عضوي كالإنسان، تتبع من الواقع وتتغذى بالوراثة، وتنمو بالتجربة الجديدة، وتستجيب لكافة أنواع المؤثرات الداخلية والخارجية(4). فهي بهذه الصفة قابلة للاكتساب والتطور غير محكومة بالنقص، باعتبار أنها تورث. ولا تكون حضارةٌ(جديدةً) إلا إذا أضافت إلى سابقاتها، وهي ما لم تضف إلى ما سبقها لا تستحق اسم (حضارة) أي أن من سماتها المحافظة على الموروث الذي يثبت جدواه، والإضافة عليه.

هكذا تبرز العلاقة الجدلية بين الإنسان والحضارة، فالإنسان ابن للحضارة، ابن للمكتسب الإنساني، والحضارة نتاج إنساني فـ ((من الطبيعي اعتبار الإنسان نتاج الحضارة والتاريخ من جانب، بينما الحضارة والتاريخ هما نتاج العمل الاجتماعي المنظم للإنسان))(5).

هذه الجدلية تركت آثاراً واسعة، ودلالات لا تحتاج إلى إثبات، فهي تثبت ذاتها، سواء في الشخصية الإنسانية أفراد وجماعات، أو في الواقع الملموس بكل جزئياته وتشعباته، فالتطور الحاصل في كلا الأقنومين يصل حد الإبهار، سواء على مستوى التطور المادي أو على مستوى الوعي.

وهنا يبرز أحد أهم الخلافات أو الاختلافات في فهمنا للحضارة!

هل الحضارة هي الثقافة أم غيرها؟ هل يتطابق المفهومان أم يزيد أحدهما على الآخر؟

هناك من يدمجهما في مفهوم واحد وكأنهما ينطويان على الدلالة ذاتها، وهناك من يفصل بينهما مفرقاً بين المفهومين. وهناك من يجعل تطور أحدهما يوصل إلى الآخر.

ففي الإشارة إلى حقبة من حقب تطور المصطلحين، يقول تيري إيجلتون: (ولقد تعقب ريموند وليامز بعضاً من تاريخ كلمة ((الثقافة)) المعقد، وميز ثلاثة من معانيها الحديثة الكبرى، فقد خرجت هذه الكلمة من جذورها الأصلية الممتدة في

تربة العمل الريفي لتعني في البداية شيئاً قريباً مما تعنيه كلمة civility (الكياسة)، ولتغدو في القرن الثامن عشر مرادفاً إلى هذا الحد أو ذاك لكلمة civilization (الحضارة) بالمعنى الذي يشير إلى سيرورة عامة من التقدم الفكري والروحي والمادي. فالحضارة كفكرة تساوي بين آداب السلوك والأخلاق على نحو له دلالته، فإن تكون متحضراً يعني ألا تبصق على السجادة كما يعني ألا تدق أعناق من أسرتهم في الحرب: فكلمة ((الحضارة)) ذاتها تشتمل على ضرب من التعالق الذي تكاد أن تضيع فيه الحدود بين التصرف المؤدب والسلوك الأخلاقي، الأمر الذي يمكن أن نجده في انكلترا في كلمة ((جنتلمان)).)(6).

المثقف عند د. نصر حامد أبو زيد : ((هو الإنسان المنخرط ـ بطريقة أو أخرى ـ في عملية إنتاج الوعي))(7). والملاحظ أن التعريف يحيل الثقافة إلى مفهوم الوعي، وهذا يبعدها عن حيز المادة، في حين توحد بينهما آراء أخرى.

غيره يرى أن الثقافة هي ((نمط حياة يجري اكتسابه اجتماعياً لا غريزياً ويتم نقله بين الأجيال بالتعلم))(8). حيث لا نرى فصلاً في المعاش بين ما هو مادة وما هو وعي، وقوله (نمط حياة) يتضمن الفكرة وما به تتحقق هذه الفكرة إذا كان من شروط تحققها أن تتحول إلى مادة، إلى تكنولوجيا.

ويعطي إيجلتون كلاً من المصطلحين بعداً اجتماعياً عندما يعتبر الحضارة برجوازية في حين أن الثقافة أرستقراطية وشعبية في آن معاً (9).

وإذا كان د. أبو زيد يوقف الثقافة على رجل واحده، فيحرمها من البعد المادي، والتعريف الثاني يترك الباب مفتوحاً لما يدخل في إطار ((نمط الحياة)) باتساعه أو ضيقه، بمرونته أو صلابته، فإن آخرين لا يتركون الباب مواربا، فيما هون ـ ولو اجرائياً على الأقل ـ بين مفهومي الثقافة والحضارة فيحيل أحدهما على الآخر، فيكون هو أو ما يقترب منه.

ينقل عن عالم الانتروبولوجيا الشهير ((تايلور)) قوله: ((الحضارة أو الثقافة بمعناها الاثوغرافي الواسع هي ذلك الكل المركب الذي يشمل المعرفة والعقائد والفن والأخلاق والقانون والعرف وكل القدرات والعادات التي يكتسبها الإنسان من حيث هو عضو في مجتمع))(10)

وإذا كان التعريف يبدأ بعطف الثقافة على الحضارة، أي باكتسابهما حكماً واحداً، أو المماهاة بينهما، فالملاحظ الابتعاد عن إدخال أية عناصر مادية في تحديد مفهوم الحضارة أو الثقافة، والاكتساب، هنا يبتعد في تقديري بشكل واضح عن حقل المادة. الجديد هنا الخلط بين المفهومين واعتبارهما مفهوماً واحداً، مع إبقائه بعيداً عن المادة.

كما الملاحظ التركيز في بعض هذه التعريفات على دور الاكتساب في الحصول على المستوى المطلوب، والمشروط اجتماعياً.

وفي نقلة أخرى، يعتبر د. حيدر إبراهيم علي الثقافة : ((كما ما يبدعه أو ينتيجه الإنسان بيده أو جسمه أو عقله مثل الصناعة والعمل والتفكير والتأمل))(11) ولا يترك هذا التعريف مجالاً لاعتبار المادة و الإنتاج باليد والجسم، خارج مكونات الثقافة، حيث يتم إخراجها من حيز الوعي أو الفكر إلى مجال النشاط الجسدي وما ينتج عنه من معطيات مادية.

والأكثر صراحة ووضوحاً في اعتبار المنتج المادي أحد مكونات الثقافة هو محمد الخطيب الذي يقول: ((وتشمل الثقافة كذلك كل ما يصنعه الإنسان من عناصر المادة مثل الملبس والمباني والآلات والأدوات التي تزداد كثافة كلما تقدم الإنسان))(12)

وإذا كنا قدر رأينا أن هناك من فرق بشكل حاسم بين الثقافة والحضارة، وهناك من قارب بينهما بدرجات متفاوتة إلى حد المماهاة، فإن هناك من يشير إلى الوحدة الجدلية بينهما كما أشرنا، مخرجاً العلاقة إخراجاً منطقياً أو فلسفياً، فيبقي على الفرقة والوحدة في آن معاً. يقول إدريس هاني: (إذن المسألة هي أن الثقافة في اعتقادي هي مرحلة القوة من الحضارة، والحضارة هي مرحلة الفعل من الثقافة، هذه هي العلاقة الجدلية بين الثقافي والحضاري)(13) ويتابع:

((إذن إذا نظر إلى الحضارة من حيث قوة الدفع فهي ثقافة. أما إذا نظر إليها من زاوية مادية فتسمى عند البعض مدنية)) (14).

والباحث مع إشارته إلى الوحدة الجدلية بين الثقافة والحضارة، لا يزيل الحدود بينهما، فالحدود صارمة، إذ الثقافة تنتهي عند نقطة التحول إلى حضارة، عندما

oberkanal.com

تتحول إلى تكنولوجيا، عندما تدخل عالم الصنائع، مستعيراً مصطلحاً خلدونياً، استخدمه ابن خلدون للتفريق بين حياة البداوة (اللاتحضر) وحياة التحضر، وهو لفظ ((المدنية)). لقد أرسى بذلك تخوماً واضحة لكل من الطرفين وكأن الفصل بين خطة المعركة وتنفيذ المعركة أو الفصل بين فكرة الآلة والآلة أمر ممكن، إنه يستسهل ذلك، ويظهر استسهاله بتعريف الحضارة ((هي نمط في العمران يقوم على مبدأ القوة. وأبرز سمات هذه القوة ومصاديقها، قوة الصنائع)) (15).

في التعريف السابق انحياز واضح لما هو مادي، ضد ما هو وعي في تكوين الحضارة، فهي (نمط في العمران) ومعروف ما تحيل إليه لفظة عمران من إشادة الأبنية وغير ذلك من معطيات مادية، وهي تتحدد بـ ((مبدأ القوة)) التي أبرزها (قوة الصنائع) لا قوة الأفكار. القوة المنتجَة لا القوة المنتجِة. في هذه الحالة يمكن وصف ألمانيا الهتلرية بالمتحضرة جداً، ويمكن وصف إلقاء القنابل الذرية على هيروشيما وناغازاكي، عمل حضاري رفيع.

هو بهذا يغلّب الجانب المادي في فهمه للحضارة، ويكرس الفصل بينها وبين الثقافة، صانعاً حدوداً واضحة لكليهما في الحياة. علماً أن الحدود لا يجوز أن تدخل هذه الحقول إلا من أجل الدراسة، لأن تحديد التخوم بمثل هذه الصرامة لا يعود إلا بالضرر، لما فيه من تفكيك المتداخل.

وطبيعة فهم الباحث للحضارة أدى إلى النتيجة التي تقول أن لا صراع بين الحضارات، كما لا حوار بينهما، لأنه لا يعترف بوجود أكثر من حضارة في وقت واحد، وهذا ما لا نؤيده فيه ببساطة. وإن كنا نرى أن الحضارات لا تتصارع بل المصالح هي التي تتصارع، يقول : ((أن أنسب عنوان للحوار، هو الحوار الحضاري بين الثقافات. وليس ثمة على الإطلاق شيء اسمه الحوار بين الحضارات، لسبب بسيط جداً وهو أنه ليس ثمة حضارات تتعاصر في آن واحد.... الحضارات لا تتحاور، الحضارات تتناوب))(16) وهو يؤكد ((أن لغة الإنتاج والإبداع والصنائع، هي لغة الحضارة السائدة منذ اكتشف الإنسان النار. فالقول بـ ((الحوار بين الحضارات)) جهل مركب بالحضارة و ((الصدام بين الحضارات)) سالبة بانتقاء الموضوع)) (17).

تحديد الحضارات على أساس مادي (القوة والصنائع، أو قوة الصنائع). عدم الاعتراف بوجود أكثر من حضارة في وقت واحد. الفرز بين الثقافة والحضارة بشكل صارم. نفي الصراع أو الحوار عن الحضارات لحصره في مجال الثقافات فيصبح (الحوار الحضاري بين الثقافات. هذه قضايا تثير الانتباه في فهم الباحث للحضارة والثقافة، علماً أنه بتحديده الحوار الحضاري بين الثقافات يشير إلى بعض الارتباك، أو يعيد مصطلحاته إلى الحدود الغائمة، وكأنه نسي أنه أشار إلى الوحدة (الجدلية) بين الحضارة والثقافة، وإذا كانت هذه الوحدة موجودة فكيف تصارع أحداهما دون الأخرى؟!

واستباقاً لكل مناقشة نقول، إن الحضارات لا تموت، وما يموت لا يستحق اسم حضارة، الحضارات كلها باقية (بقاء بعض عناصرها في غيرها) بشكل متفاوت، وهي غير متصارعة، ليس لأنه لا توجد سوى حضارة واحدة في وقت واحد، بل لأن الحضارات طورت أشكالاً لا حصر لها من الحوار، إنما الصدام فهو بين المصالح التي تظهر في كنف الحضارات.

إن العجلة السومرية حاضرة في كل منتج حضاري تكنولوجي حتى مركبات الفضاء، والبارود الصيني حاضر في كل سلاح ناري أنتجته البشرية وصولاً إلى تفجير الذرة، والصفر العربي لم تستغن ولن تستغني عنه الرياضيات مهما بدت حديثة، وجبر الخوارزمي يحقق حضوره ولم يلق إلى مستودعات المتاحف، وأفكار الطباعة عند الصينيين لم تغب عن غوتنبرغ وهو يخترع المطبعة، كما أنها موجودة بشكل ما في المطابع الإلكترونية الحديثة، والأرقام الهندية لن تصبح البشرية في غنى عنها لا الآن ولا في المستقبل!!

إن ذاكرة الإنسانية المتعددة المنابع كانت ولا تزال قادرة على استيعاب ما تنجزه الشعوب وهي تروي بعرقها ودمها وعقلها قصة حضارة بشرية ساهمت وتساهم في إنجازها كل شعوب الأرض، ولن تستغني عن جزئية لا بديل لها، إذا كانت لا تزال ضرورية لحياة الناس وتقدم الشعوب ولنطمئن إلى أن توزيع الحصص الحضارية، ليس إرادوية سياسية أو فكرية تاريخية، بل هو فعل حضاري ممتد،

وإذا كنا نشاهد فعل السياسة القوى والطاغي، فلا شك أن الفعل السياسي ينتهي ويبقى الفعل الحضاري لا نهاية له!

أين تنتهي حدود الثقافة، وأين تبدأ حدود الحضارة؟ هل يعتبر حضور المادة هو ذلك التخم الذي عنده تبدأ الحدود؟ تفترق أو تلتقي؟ ربما.

الثقافة تحيل إلى الوعي، وحدود الثقافة هي حدود الوعي كما رأينا لدى البعض، لكن عندما تقتحم المادة أسوار الوعي، يتشيأ فيصبح حضارة. هل تصح الترسيمة هكذا؟ على الأقل هذا ما فهمناه من النقاش مع إدريس هاني، كصوت مختلف مع أن هناك من يشاركه في جانب الفهم المادي، أو التحديد المادي للحضارة، يقول أيجلتون: ((فالحضارة مجردة ومغتربة، ومتشظية، وميكانيكية، ونفعية، ومستعبدة لإيمان شديد بالتقدم المادي، أما الثقافة فكلية، وعضوية ومحسوسة، لا غاية لها سوى ذاتها، فضلاً عن قدرتها على التذكر والاستعادة))(18).

لقد أصبحت مشروعية فهم الثقافة والحضارة مفتوحة على احتمالات كثيرة وتقديرات وطرق فهم وتعاط مع الموضوع. لكن كيف فهم الحضارة دارسوها الكبار ومؤرخوها؟ ما الذي درسوه ليسموه حضارة؟ أو باعتباره حضارة؟

لنترك لـ ((ول ديورانت)) أحد أشهر دارسي الحضارات ومؤرخيها، أن يقدم لنا فهمه لحدود الحضارة كما رسمها، وكما تناولها بالدراسة في كتابه الضخم ((قصة الحضارة)).

هو يرى أنها تتألف من عناصر أهمها:

اقتصادية: وقد تطورت من الالتقاط والصيد إلى الحراثة والزراعة فالصناعة والتجارة.

سياسية: حيث بدأت الحكومة فنشأت الدولة والقانون ونظمت الأسرة... إلخ.

خلقية: كالزواج والأخلاق الاجتماعية والدين.

عقلية: كالعلم والآداب والفنون والقوانين والفلسفات... إلخ.

وهو لا يغفل عن قوة العمل في تطويعها للعناصر المختلفة لجعلها ملائمة للدخول في إطار ما يطلق عليه حضارة بمعناها الأكثر رقياً، عبر تاريخية التطور الإنساني (19).

ويرى أنها بهذا المعنى أو بهذه العناصر نشأت في الشرق الأدنى: بلاد الرافدين، مصر، بلاد الشام، فارس.... إلخ.

حاولنا أن نقدم فيما مضى فسحة لفهم حجم الاختلاف على مفهومي الثقافة والحضارة أو التوافق عليهما، مركزين على تنوع وغنى في تحديد المفهومين يحيل إلى الاختلاف أكثر مما يحيل إلى التوافق، تمكيناً للحصول على طيف المعاني الواسع، وزوايا التناول الرحبة، والتي في رأينا حصرت التفكير في بعد المادة أو قربها من المفهوم الواحد، فالحضارة والثقافة شيء واحد لولا اكتساب الحضارة لقوة البعد المادي الذي يعتبر محدداً لأبعادها، و ((إذا كان ول ديورانت قد ألصقها بالنشاط الزراعي، فإن ابن خلدون ألصقها بالنشاط الصناعي))(20) وهي في رأي ديورانت قد تبدأ في كوخ الفلاح لكنها لا تزدهر إلا في المدن، لكن ابن خلدون يقابل بين الحضارة والبداوة، إذ البداوة عنده تساوي البعد عن الصنائع (21).

ولا بأس من الإشارة إلى التماهي بين مفهومي المدينة والحضارة في أذهان البعض، فمفهوم التمدن الذي يقابله البداوة، لا يتطابق مع التحضر الذي هو سكن الحواضر (المدن) كنقيض للتبدي والترحال. أيضاً لا بأس من إشارة إلى ما يورده إدريس هاني من أن القرآن استعمل عبارة القرن والقرون أو القرية والقرى للتعبير عن الكيانات الحاضرة، ولم يستخدم القرآن لفظ الحضارة أو مشتقاتها إلا في مورد واحد ((وأسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر))(22).

وكما يكتسب مفهوم الحضارة بعده الاجتماعي فكذلك يكتسب بعده الطبقي في المجتمع: ((فهذا المصطلح ينتمي في واقع الأمر إلى معجم الطبقة الوسطى الأوروبية ما قبل الصناعية، حيث يعبق بآداب السلوك، والدماثة، والكياسة، والتهذيب وأناقة التعامل)) كما يرى إيجلتون (23) ويبدو أن الرجل ممن يؤمنون بالأثر الكبير للمهن على أخلاق وحياة أصحابها، حيث ((أن التهذيب يسير مع التجارة جنباً إلى جنب، ذلك أن التجارة هي ما يحطم الغلظة الريفية، ويقحم البشر في علاقة معقدة، وبذا يصقل ما لديهم من نتوءات حادة وحواف قاطعة)) وقد ((كان لا بد لـ (الحضارة) من أن تكتسب صدى إمبريالياً أيضاً، وهو ما كان كافياً لتسويد صفحتها في أعين بعض الليبراليين))(24).

هوامش المدخل

1 - محمد الخطيب، الاثنولوجيا، دار علاء الدين، ط1 /2000 ص8

2 - ديزموند موريس، القرد العادي، دراسة للتطور العضوي والجنسي والاجتماعي للإنسان، ترجمة: ميشيل أزرق، ط2 دار الحوار ـ اللاذقية/1995 ص17

3 - محمد الخطيب، المرجع السابق، ص7.

4 - المرجع السابق ص9.

5 - د. عبد الرحيم الكريمي، صراع أم حوار بين الحضارات.. أم صراع ضد هيمنة النظام العالمي الجديد، مجلة النهج، العدد /33/ السنة /19/ شتاء/2003 ص134.

6 - تيري ايجلتون، فكرة الثقافة، ترجمة: ثائر ديب، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية ص28.

7 - د. نصر حامد أبو زيد، الخطاب والتأويل، المركز الثقافي العربي، ط1/2000 ص15.

8 - فراس السواح، دين الإنسان، دار علاء الدين ، ط1/1994 ص124.

9 - تيري إيجلتون المرجع السابق ص33.

10 - محمد الخطيب، المرجع السابق، ص21.

11 - د. حيدر إبراهيم علي، العولمة وجدل الهوية الثقافية، عالم الفكر، المجلد الثامن والعشرون، العدد الثاني، أكتوبر، ديسمبر/1999 ص98.

12 - محمد الخطيب، المرجع السابق ص21.

13 - إدريس هاني، حوار الحضارات، المركز الثقافي العربي، ط1/2002ص134.

14 - المرجع السابق ص135.

15 - المرجع السابق ص93.

16 - المرجع السابق ص132.

obeikandl.com

17 - المرجع السابق ص161.

18 - تيري ايجلتون، المرجع السابق ص33

19 - ول ديورانت، قصة الحضارة، المجلد الأول، نشأة الحضارة، الجزء الأول، ترجمة : زكي نجيب محمود، الإدارة الثقافية ـ جامعة الدول العربية، ط3/1965.

20 - إدريس هاني، المرجع السابق ص100.

21 - المرجع السابق ص.101.22

22 - قرآن كريم، الأعراف /163/ نقلاً عن إدريس هاني المرجع السابق ص95.

23 - تيري ايجلتون، فكرة الثقافة، ص30.

24 - المرجع السابق ص31.

obeikandl.com